أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

تفسير سورة النساء: قال الله – تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١].

تقدم تفسير سورة **"آل عمران"** التي ضمنها أمورًا عقائدية، وسياسية مهمة كما ضمنها الله أمورًا اقتصادية وحربية وتعاليم عسكرية منقطعة النظير.

وخللها طرفًا من فضائح اليهود وإفحام النصارى في تفنيد عقيدتهم، وافترائهم على الله وختمها بما يناسب مدلولها العقائدي والعسكري العظيم، وأعقبها بسورة **"النساء"** الكبرى التي هي مليئة بتركيز العقيدة، وذكر الأحكام التشريعية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، وتخللتها آيات في فضيحة أهل الكتاب وتكبيتهم، وتكذيب مزاعمهم مع التشريعات الحافظة لكيان المسلمين، واستقلالهم، واستقرارهم الداخلي والخارجي وتوضيح بعض أحكام النكاح وحسن معاشرة النساء، ورعاية الآداب في مختلف الميادين، وقد افتتحها الله بنداء جميع الناس وأمرهم بالتقوى التي هي مِلاك الأمر ومنبع الخير، وأساس الفضيلة، وبها تحصل مراقبة الله في تنفيذ تشريعاته، وأحكامه على الوجه المطلوب بدون إخلال ولا مواربة؛ لأنه – سبحانه وتعالى – هو الذي تفزع إليه القلوب، وتخضع لعظمته رقاب المؤمنين الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه، وهذه السورة التي هي أطول السور بعد سورة البقرة، وإن

قلَّت آياتها عما قبلها فإن فيها عدة أنواع من تربية الله المعنوية لعباده المؤمنين تربية ترفعهم من الهبوط البهيمي والتصورات الجاهلية إلى أعلى المراتب، وأشرف الغايات، وأبدع التصورات الروحية المؤهلة لهذه الأمة للقيادة العالمين التي تحرر بها البشرية وتصقل قلوبها وتطهر أدمغتها من زبالات الأفكار الوثنية المادية، ولهذا تضمنت تصوير الطبيعة الخسيسة لأعداء الله، وما يقومون به من تلويث الأدمغة وإفساد القلوب ليحصل الحذر من دسائسهم، والتحفظ من أحابيلهم، فإن في هذه السورة كما في أغلب أخواتها من سور القرآن انتشال لنفوس المسلمين وارتفاع بعقولهم عن الهبوط الذي توقعهم به أحابيل أعدائهم من سائر أنواع الكفر، عُباد المادة والشهوات كما أفضح لنا خطتهم بقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾[النساء:٢٧].

وهذه السورة مدنية على الأصح، وقد افتتحها الله بما ختم بها سابقتها من الوصية بالتقوى، إلا أن السورة السابقة حصر النداء فيها بنداء الكرامة للمؤمنين، وهنا عمم النداء لجميع بني الإنسان بنداء العلامة والتذكير بوشائج القربة الأصيلة في مبدأ التكوين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وفي ابتداء السورة بهذا النداء مناسبة عجيبة في ترابط السور تُدعى عند أهل البديع بتشابه الأطراف أو بالتسبيغ، كما فيها براعة استهلال لما احتوته من أحكام التوارث للرجال والنساء وأحكام النكاح والمعاشرة وما جاء في الأيتام على العموم،

ويتامى النساء على الخصوص، وتفصيل أحكام الناس السياسية والاجتماعية وغيرها، وفي هذه الآية من عظيم الفوائد والبحوث عدة مسائل:

- أحدها: مناسبة تأخير هذه السورة عما قبلها، وارتباطها بها لما فيها من منطلقات وقعة أحد، وذكر المنافقين، وسلوك الحزم في معاملتهم، وتفضيل المؤمنين المجاهدين والمنفقين على القاعدين، وأخذ الحذر في النفير والثبات على الصلابة في النزال وذكر النصيب للنساء.

- ثانيها: إخبار الله في سورة **"آل عمران"** عن بني الإنسان أن بعضهم من بعض في أصل التوالد وتوضيح الله في أول هذه السورة على اتحاد الأصل وتفرع العالم الإنساني منه، ليحثهم على التوافق والتحابب والتعاطف والتراحم وعدم الاختلاف.

- ثالثها: تنبيه الله لبني الإنسان على أن أصولهم كانوا عابدين لله قد أفردوه بالتوحيد والتزموا طاعته وتقواه، فكذلك ينبغي أن تكون فروعهم على ما كانت عليه الأصول الناشئة منهم، فلا يكون لهم مسلكٌ غير مسلك أجدادهم، فلهذا جاء نداء الله للناس جميعًا يأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، ومنبع الرشد والفضيلة.

- رابعها: أن الله جعل سبب التقوى تذكيرهم أنه – سبحانه وتعالى – أوجدهم وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادرًا على مثل هذا الإيجاب

الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال، وجلب النفع والضرر لها فهو جدير بأن يُرهب وتتقى مساخطه.

- خامسًا: قوله – سبحانه –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فيه تنبيه على ما هو مركوز في الطباع من ميل بعض الأجناس إلى بعض، وحصول الإلفة بين الجنس الواحد ليتألف بذلك عباده على التزام تقواه، فيتحدوا على دينه الذي هو أساس التقوى.

- سادسها: تكرير الله الأمر بالتقوى مع اختلاف التعليل فيه ترغيب وترهيب، فإنه قال أولًا: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وذِكر الرب يدل على الإحسان والتربية، ثم قال ثانيًا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ والألوهية تدل على القهر والهيبة وعلى الإذعان له بالحب والتعظيم.

- سابعها: أن وصية الله للناس بالتقوى تتضمن الإيمان بالحشر والنشور الذي هو من أعظم ركائز العقيدة الإسلامية، لأن الله – سبحانه وتعالى – لما كان قادرًا على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصًا مختلفين، وأن يخلق من قطرة من النطفة شخصًا عجيب التركيب في أحسن تقويم، وألطف صورة، فكيف يستبعد عليه إحياء الموتى وإعادة الخليقة!.

إن النص يدل على أن الإعادة أهون عليه من البدء كما في الآية سبعة وعشرين من سورة **"الروم"**.

- ثامنها: في هذا الأمر من التقوى مطابقة لمعاني السورة، فإن من بعض معاني هذه الآية اتقوا الله الذي وصل بينكم بأن جعلكم صنوانًا متفرعة من أصل واحد، فاتقوا الله فيما يجب لبعضكم على بعض من البر والعطف والإحسان، فحافظوا عليه، وليكن بعضكم طبيبًا لقلب بعض بغرس الإيمان في القلوب وتطهيرها مما يناقض الفطرة من الشرك، والإصرار على المعاصي لشكر الربوبية وتعظيم الألوهية مع تخليص الأدمغة من فساد التصورات المخالف لذلك، فإن نصح بعضهم لبعض بالتوجيه إلى التوحيد وأطرهم على الحق أطرا هو من أعظم الخدمات الإنسانية وأشرفها، فإن الإغاثة الروحية أفضل وأوجب من الإغاثة البدنية.

ومن هنا: وجب الجهاد والقتل للمتنكب عن هداية الله، والقائم بصد الناس عنها، ومعاداة الدعاة إليها، فالإنسان محترم النفس والمال، وله حقوق على أخيه، ودمه غالي الثمن، ولا تُهدر حقوقه ويُرخص دمه حتى يقف في وجه الهداية، فيجب قتاله لأنه بدَّل نعمة الله كفرًا، فلا يستحق الحياة الطيبة التي رفضها بمقاومته للدين واطراحه لرسالة رب العالمين، وعبادته لما تهواه نفسه من الأشخاص والماديات، فإنه بذلك قد نقض ميثاق الله الفطري والشرعي، وقطع ما أمر الله بن أن يوصل، فلابد أن يُحدث في الأرض أنواعًا من الفساد إذا لم يُقمع بقوة الجهاد كما قال – سبحانه – في الآيات ستة وعشرين، وسبعة وعشرين من سورة "**البقرة**": ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۞ الَّذِينَ يَنقُضُونَ

﴿عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة:٢٦-٢٧] فالجهاد غير علاج لمن يخرجون أنفسهم من الإنسانية الحقيقية لهذه الحالات والأوصاف.

- ثامنها: أنه – سبحانه – جعل نداء الناس إلى التقوى مطلع سورتين، وهما: هذه السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن.

وثانيهما: سورة "**الحج**" التي هي السورة الرابعة من النصف الثاني، ثم إنه – سبحانه وتعالى – علَّل الأمر بالتقوى في هذه السورة سورة "**النساء**" بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه خلق بني الإنسان من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرته وعلمه وحكمته، ثم علل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على معرفة المعاد وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[الحج:١] ولهذا أكبر الأثر في حصول التقوى وفي ذلك إيضاحٌ لدلائل التوحيد والرسالة التي آخرها رسالة محمد ﷺ، فإن هذه النصوص وأمثالها مما تشهد بألوهية الله وربوبيته وصدق رسوله النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب.

- تاسعها: هذا النص من الله – سبحانه – على أن منشأ جميع بني الإنسان من نفس واحدة يوجب عليهم ترك المفاخرة فيما بينهم، واستعلاء بعضهم على بعض بالأنساب، أو العلوم، أو الأوطان والمناخ وغير ذلك من أنواع التعالي الكاذب.

ففي هذه الآية دليل على كذب البابوات ومن يزعمون أنهم أبناء السماء، أو يؤلهون أنفسهم على البشر بأنواع الدعاوي كملوك سكان الشرق في الأقصى. والفراعنة الأقدمين، والنازيين من الألمان، وكثير من زعامات المبطلين وعلى سخافة عقول من صدقهم من الشعوب الذين عطلوا عقولهم عن التفكير في أصل الخلقة، فإنه ليس للملونين أبًا ولا ربًّا غير أب السود وربهم، وأنه ليس للألوان البشرية ميزة ولا قيمة فلا يجوز أن يُجعل منها مقدسًا ومحتقرًا أو طبقات شريفة، وطبقات منبوذة لا تحظى بما يحظى به غيرها من الكرامة والامتياز، بل لا يحق لها مجالسة غيرها في مجالسه، ومؤاكلته كما هي الحالة في الهند ونحوها حتى في هذا الوقت الذي يزعمون فيه الوعي والتنور، وهم يؤمنون بالطبقية الكاذبة، ويتعصبون لها، ويجعلون للسود والمنبوذين أحكامًا خاصة مرتكزة على احتقارهم، وإهانتهم مما هو مخالف لحقوق الإنسان التي يُنادون بها كأنهم ليسوا من نسل رجل واحد وهم من واحدة، بل كأن بعضهم من نسل قديس معظم، وبعضهم من نسل سافل ذميم مرجوم، فالتعاليم الإلهية في القرآن تشجب هذه الأوضاع الملعونة منذ أربعة عشر قرنًا، ولا تبيح هذه الفوارق والتمييزات الجائرة، فهل من مفكرٍ بهذه التعاليم المنصفة لبني الإنسان والمحققة لخيرهم، والتي لم تصل إليها الثقافات الوضعية التي لو قررتها لن تجد من ينفذها لأن القانون لا يؤثر في الضمائر كما تؤثر تشريعات الله، وقد وردت آيات وآثار كثيرة تؤيد هذا المبدأ كما في الآيات إحدى عشر واثنا عشر وثلاثة عشر من

سورة "**الحجرات**" التي آخرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣] فجعل علة اتحاد الأصل هي التعارف الذي يحصل به تبين الأنساب بصلة الأرحام والتعاطف والتناصح والتعاون على البر والتقوى ليس للتفاخر والتطاول واحتقار الضعيف والطمع به والسعي لإذلاله وجعله دون مستوى البشر.

وفي قوله – سبحانه –: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ إعلام بأن منزلة الرفعة عند الله في الدنيا والآخرة لا تُنال إلا بالتقوى فقط، وأن عديم التقوى ليس له قيمة عند الله بتاتًا فيجب على المسلمين ألا يفضلوا أحدًا من الناس إلا بتقوى الله، فلا ينظروا إلى نسبه، أو ماله، أو قوته، ووجاهته، أو كرمه وبذخه أو علو منصبه المادي لأن الله لم يقل: إن أكرمكم عنده أغناكم، وأجملكم، أو أقواكم، وأرفعكم منزلة في السيادة والوظيفة ونحو ذلك، بل يجب اطراح هذه الاعتبارات الشكلية والمادية.

وأما الآثار النبوية فكثيرة:

منها: قوله ﷺ ما معناه: «إني أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يسخر أحد على أحد»، وقال: «من تواضع لله رفعه».

وورد عنه أنه قال: «أيها الناس! ألا إن ربكم واحد لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا

بالتقوى، ألا هل بلغت؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب» ولعل هذا من فقرات خطبة الوداع، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الكبر، والخيلاء، وما لأهلهما من عذاب الدنيا والآخرة، منها قوله: «يُحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم».

ويكفي قوله – تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨]، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣]، وقد صح في المنصوص أن الكبرياء والخيلاء من كبائر الذنوب، وأنها من أمراض القلب وذنوبه المفسدة للسيرة والضمير.

فقوله – تعالى -: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يوجب عليهم عدم التنافس والشقاق وأن يتحدوا، ويرعى بعضهم مصلحة بعض، ويحل بعضهم مشاكل بعض، وألا يُسفك بينهم دمٌ ولا قدر محجم.

- عاشرها: كونه – سبحانه وتعالى – خلق بني الإنسان من نفس واحدة، وهو – سبحانه – بذاته واحد أحد، فرض صمد، عليم خبير حكيم، فيستحيل مع وحدانيته وعلمه وحكمته أن يجعل لهم أديانًا مختلفة متناقضة تغري بينهم الخلافات والعداوات، والحروب، بل تقتضي وحدانيته وحكمته وحدة الدين لعباده الذين خلقهم من نفس واحدة، وقد نص على ذلك بأن دينه الإسلام جاءت به جميع الرسل، ونزلت به جميع الكتب، وشُرع من أجله الجهاد، وأُمر بإقامته، وتنفيذ تشريعاته، وقصر.... على التمسك به وأخذ العهد

على جميع المرسلين وأممهم إن هم لحقوا على خاتمهم محمد ﷺ ليؤمنن به ولينصرنه على دين الإسلام، فيتضح من مجرد خلقه لبني آدم من نفس واحدة أن دينه واحد، موحد لمن تمسك به، فإنه ليس من المعقول أن يصدر من الله العليم الحكيم الخبير بمكنونات النفوس ودخائلها أديان متضاربة، متعارضة، متعاكسة، لا تقدر العقول على التوفيق بينها لا في حقيقتها ولا في مسالك أهلها واعوجاجهم بها، فهذه الآية من جملة الأدلة على وحدة دين الله، وأنه الإسلام الذي نص عليه وعلى عدم قبول سواه، خصوصًا وقد نص على أنه نور وهدى وبصائر ورحمة للعالمين، ولا تكون هذه الصفات الحميدة في أديان مختلفة متضاربة ينشأ منها أمور متشاكسة، وإنما تكون هذه الأوصاف في دين الله الإسلام الذي هو دين واحد وموحد للبشرية وجميع ما في الدنيا من الأديان المزعومة، فهو افتراء على الله ودجل من دجل شياطين الإنس الذي تتولى كبره أمة اليهود أهل الفساد والإفساد.

فلا يجوز إقرار المفتري على الله، والحق من الله دين الله واحد لا تعارض فيه ولا تناقض، ولا يعارضه إلا الباطل الذي يجب نقضه وقمع أهله.

ومن التفت إلى ما ذكره الله في سورة البقرة من وصية إبراهيم ويعقوب علم كذب اليهود والنصارى، وافترائهم على الله، وازداد تمسكًا بالإسلام وتحمسًا له، وعزمًا على تنفيذ أوامر الله في جهاد من تنكب عنه، أو عمل ضده، وما أجهل من يدعو إلى مسالمة هؤلاء، أو يسميهم بالمسيحيين وهم أعداء

المسيح المخالفين لما جاء به، والمكذبين عليه، وما أكفر من يؤاخيهم باسم قومية أو وطنية وهم على هذه الشاكلة.

- حادي عشرها: في هذه الآية الكريمة تعريف بني الإنسان بأكبر نعمة لله عليهم، وهي نعمة الإيجاد، فإنه غاية الإنعام ومنتهى الإحسان فإنك أيها الإنسان كنتَ معدومًا فأوجدك الله، وكنتَ ميتًا فأحياك الله، وعاجزًا فأقدرك الله، وجاهلًا فعلمك الله كما قال – سبحانه –: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

وكما قال عن خليله إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ *وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ *وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ *وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ *وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٧٨-٨٢].

فلما كانت هذه النعم كلها من الله – سبحانه – وجب على الإنسان أن يقابل تلك النعم بالشكر العملي الذي هو الخضوع لله، والانقياد لأوامره، والمسابقة إلى ما يرضيه واجتناب ما يسخطه، هذا هو المقصود بقوله – سبحانه –: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة:٢٨].

فالقيام بشكره هو معاملته بمقتضى ربوبيته، وأما حصر الحب وقصره عليه فهو معاملته بمقتضى ألوهيته، ووحدانيته، وذلك أن يكون الله ورسوله أحب

إليه مما سواهما، وألا يحب أحدًا إلا لله، وفي الله، فلا يحب الكافر أو العاصي ولو كان أقرب قريب، ولا يواليه لأي مصلحة، ولا يلتقي معه في أي تقليد، بل يبغضه، ويعتزله بعد السعي في هدايته، والإعذار منه، وأن يكون الله هو منتهى قصده، وغاية مطلبه، وأما معاملته بمقتضى الملوكية فهي بتنفيذ شريعته، والعمل على حمل الناس عليها، والصدق معه في بيعته الدينية على النفس والمال.

- ثاني عشرها: أجمع المسلمون على أن النفس الواحدة هي آدم – عليه السلام – الذي اعتنى الله بخلقه واختاره وذريته خلائف في الأرض كما مضى توضيحه في سورة البقرة، ولا عبرة بمن فسره بغيره من آدمٍ آخر أو مسمًّى آخر، لأن ما ورد في ذلك ليس بصحيح، وليس صادرًا على النبي المعصوم ﷺ.

وأقرب الأقوال بعد اعتماد آدم المعهود أن يكون المقصود جد قريش، المخاطبين على هذا القول، وهو قصي كما قال بعضهم في تفصيل الآية مائة وتسعة وثمانين من سورة **"الأعراف"** ولكن يعكر على هذا القول هنا وهناك قوله – تعالى -: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ مما يثبت أن المقصود به آدم؛ لأن قصيًا ليس هو الذي خلق الله منه زوجه، فهو مع زوجته كسائر البشر الذين خلقهم الله من ماء مهين.

وزوجة قصي مخلوقة من ماء غير مائه، فلا تجوز نسبتها إليه على الخصوص كما تنسبه حواء إلى آدم، لأنها خلقت منه من ضلع من أضلاعه، كما ورد عن ابن عباس مما لا يمكن أن يقوله إلا من سماع النبي ﷺ، لا عن قياس. وقد روى البخاري ومسلم بسندهما إلى النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء».

قال النووي: فيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم: أن حواء خلقت من ضلع آدم، وقد اشتهر الأثر عن ابن عباس بذلك.

ومن واجب الوقوف على حدود الله ألا يفسر وحي الله بغير الظاهر المتبادر من اللفظ، وأن يُحرص على تفسير بعضه ببعض غاية الإمكان، ولا يُشرد بمعانيه إلى تأويلات هروبًا مما يتوهم من اللوازم، فإن الخطاب للناس جميعًا إلى يوم القيامة لعموم رسالته ﷺ وليس مقصورًا على قريش، ولا يُراد به قريش، وإنما هو تقرير لأصل الخلقة الإنسانية العامة ليستيقنوا أنهم من أرومة واحدة، يجمعهم أبٌ وأم، على اختلاف ألونهم ولغاتهم وأوطانهم فلا يتفاخروا، ولا يتكبر بعضهم على بضع، ولا يجعل بعضهم لنفسه قداسة خاصة ولا ميزة خاصة، كما زعم بعضهم بأنه ابن السماء، وبعضهم أنه شعب الله المختار، وبعضهم شعب الكنانة وغير ذلك من الأباطيل التي لا تقوم عليها حجة، بل هذه الآية الكريمة مبطلة لكل دعوى، ومثبتة أن جميع بني الإنسان

أشقاء مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم، فإن هذا من عجيب آيات الله الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته وحكمته واختياره، كما قال – تعالى – في الآية اثنين وعشرين من سورة "**الروم**": ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[الروم:٢٢]، وقبلها آيتان، وبعدها ثلاث آيات كونية، فبنو الإنسان جميعًا يجب عليهم أن يعامل بعضهم بعضًا معاملة الإخوة الأشقاء، وألا يزدري بعضهم بعضًا، ولا يتطاول بعضهم على بعض، وألا يحصل بينهم تباغض وعداء إلا بالنسبة لحقوق الله، فإن الباخس أو المنتقص لحقوق الله في ربوبيته أو ألوهيته أو ملوكيته يجب على المسلم المؤمن بغضه، ومعاداته بعد إعذاره بالتبليغ كما تجب محاربته حتى يرجع إلى حكم الله، ويخضع له كما أسلفنا ذلك، سواء كان شركه باتخاذ الأنداد أو الوثائق أو طاعة غير الله فيما هو مخالف لدينه وشريعته، أو إباحة ما حرم الله أو تحريم ما أباحه الله أو موالاة أعدائه من الكفار، أو استخدام الجن بالذبح لهم إلى غير ذلك مما هو مخل بالعقيدة، ففي هذه الأحوال تنفصم عرى الإخوة الإنسانية لأن حق الله على الإنسان أعلى وأوجب من حق أخيه عليه، أما تفاخر بني الإنسان فيما بينهم وتشاحنهم من أجل قومية، أو وطنية، أو تفضيلات عنصرية أو انتصار لنفوذ الحكام بعضهم على بعض، أو الطمع في موارد بعضهم من بعض فإنه عمل جاهلي لا يقره الإسلام ولا يغواه بأي وجه ظهر، فإن الرابطة الإنسانية لا يفصمها إلا ظلم حقوق الله، فتكوين الله لهم من نفس

واحدة يوجب عليهم ذلك، وأن يتراحموا، ويتعاطفوا، وتحنو قلوب بعضهم لبضع فيما ليس من حساب الدين، وفي هذه الآية معجزة من معجزات النبي ﷺ في القرآن، لأن العقل لا يستقل بمعرفة حصر تكوين الإنسانية من نفس واحدة، ولا يستنتج منه دليل.

وغاية ما يدل عليه العقل: وجود الخالق والإيمان بوحدانيته وكثير من أسمائه الحسنى أما كون الإنسان خلقوا من نفس واحدة، فهذا لا دليل عليه إلا بالوحي الذي جاء به محمد ﷺ.

فائدة: إن قيل: كيف يصح أن يكون خلق بني الإنسان جميعًا من نفس واحدة مع كثرتهم وصغر تلك النفس؟

والجواب: أنه قد بين الله المراد من ذلك؛ لأن زوج آدم خلقت من بعضه، ثم حصل خلق أولاده من نطفتهما، ثم توالى التناسل باستمرار جازت إضافة الجميع إلى آدم، فلا عبرة بصغر النفس مع وجود الحقيقة.

فائدة أخرى: لقائل أن يقول: إن الله الذي خلق آدم من التراب قادر على خلق حواء من التراب، فما الفائدة من خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟

والجواب: أن الفائدة هي ما ذكره الله كعلة لخلقها من بعضه، وهي السكون إليها عن إلفة حسية لا يشوبها نفرة، ولا استيحاش لكونها مخلوقة منه، قد كرر الله هذه العلة في عدة مواضع تنبيهًا على حكمته بذلك التخليق، ولا ينبغي الالتفات لقول المؤولين: إن الجزم بظاهر الآيات أقوى لكي يصح قوله:

خلقكم من نفس واحدة، إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة، كما قال القاضي - رحمه الله -.

فائدة ثالثة: قال ابن عباس: **(إنما سمي آدم بهذا الاسم لأن الله خلقه من أديم الأرض كلها: أحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، وسهلها وحزنها، فلأجل ذلك كان في ولده الأحمر والأسود، والطيب والخبيث، والسهل والضعيف، والقوي، والأحمق، والحليم وغير ذلك، وإنما سميت زوجته حواء فلكونها خُلقت من ضلع من أضلاعه فكانت مخلوقة من بعض جسمه، فلا عجب بتسميتها حواء).**

وقوله – سبحانه -: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ البث هو تفريق الأشياء إذا كان في الأعيان، وإذا كان في الأخبار فبثها نشرها، فالبث هو التفريق والنشر، والمعنى: أن الله – سبحانه وتعالى – بث في الأرض أي: فرَّق فيها من ذريتهما رجالا ونساء كثيرا، على اختلاف أنواعه وسلالاتهم فهم مع تفرقهم في أنحاء الأرض واختلاف أشكالهم وألوانهم مخلوقون من نفس واحدة، وهذا من عجيب حكمة الله في خلقه وقضاؤه، وجاء لفظ الآية بصيغة التنكير حتى لا يُشعرَ بكونهما مبثوثين عن نفسهما؛ لأنه محال وهذا البث هو بالتوالد والتناسل الذي اقتضته حكمة الله في جميع المخلوقات ليرتكز في الطباع ميل كل جنس إلى جنسه، ولما كان تفرق بني آدم متفاقمًا ومتباعدًا، وكانوا مختلفي الألوان واللغات حسب حكمة الله ندبهم إلى تقواه في أنفسهم

مخبرًا لهم أنهم من صلب واحد، ورحم واحد، بجعلهم أشقاء يجعلهم أشقاء فيتعاملون على هذا الأساس، ويتعاطفون، ويتراحمون، ويتناصحون بكل إخلاص، وقد ذكر بعض المحققين السبب في تخصيص الله للرجال بوصف الكثرة دون النساء، وهو لأن شهرتهم أكمل فكان كثرتهم أظهر، فلا جرم خُصوا بوصف الكثرة، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بالرجال الاشتهار، والخروج، والبروز، وأن اللائق بالنساء الاختفاء والاحتشام، وهذا هو الواقع الفطري الذي اقتضته فطرة الله لصيانتهن، وحفظ كرامتهن، فكلام المحققين مبني على ذلك، وباختلال هذه القاعدة الفطرية الأصيلة تحدث جميع أنواع الفتنة والفساد في الأرض كما حصل من جراء المخططات اليهودية لبث التعري الشيطاني الذي ابتدأت به في الأمم النصرانية الأوروبية مستغلة عدم غيرتها، وغلبة الطالع المادي عليها.

ثم نشطت خلاياها الماسونية في المحيط الإسلامي والعربي للتضليل والتلبيس في هذا الموضوع بأساليب فاتنة فتنوا بها بعض المنخدعين من الكتاب والكاتبات الذين يُريدون العودة بهذه الأمة إلى الحالة الجاهلية من التعري والكشف، وقلة الحياء، فهم شياطين الإنس الذين هم أعوان الأبالسة، شياطين الجن يريدون سلب الإنسانية خصائص فطرتها وقوة شخصيتها وتدمير معنويتها بأنواع الانحلال الخلقي بتعرية مفاتن الجسم من اللباس، وتعرية القلوب من التقوى ليتكامل الفساد الذي يسهل به على دولة اليهود احتلال

أغلب المعمورة، وقد كسب اليهود مع الأسف أدمغة وأقلامًا وأصواتًا ملأت الأجواء تعمل لحسابهم عن شعور وعن غير شعور.

هذا وإن قول – سبحانه –: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ لا يدل على ما تصوره بعض العلماء من أنَّ جميع الأشخاص البشرية كانوا كالذر وكانوا مجتمعين في صلب آدم، وإنَّما المقصود بهم بثهم في الأرض، وما ورد من أخذ الميثاق الفطري فله شأن غير ذلك كما سيأتي.

وقوله – سبحانه –: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١] فيه تكرير الأمر بالتقوى، وذلك تأكيدًا لشأنها، وتذكيرًا لبعض موجبات الامتثال، فإن سؤال بعضهم بعضًا بالله – سبحانه – على سبيل الاستعطاف يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، بأن يقول بعضهم لبعض: أسألك بالله وأُنشدك الله، وكما أنَّ في تكرير الأمر بالتقوى تأكيدًا لها، وزيادة في الحث عليها، فإن في الأمر الأول تعليل بالإنعام، وتذكير بعظم شأنه.

وفي الأمر الثاني: تذكير بوقوع التساؤل به – سبحانه – لاهتمامهم بذلك التساؤل.

وأيضًا: فإنه يحتوي على الترغيب والترهيب، فإن الأمر الأول جاء بلفظ الربوبية في قوله: ﴿اتَّقُوا ربَّكم﴾ والرب لفظ يدل على التربية والإحسان.

أما الأمر الثاني: فقد جاء بذكر الألوهية، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فكان مبنى الأمر الأول على الترغيب، والثاني على الترهيب، فكأنه يقول: اتقوا ربكم لخلقه إياكم خلقًا بديعًا، وتكوينكم من نفس واحدة لتكونوا إخوة فيه جميعًا، واتقوه لكونه مستحقًا لجميع صفات الكمال، ولكونكم تتساءلون به تخويفًا من بعضكم لبعض، ولكونه خالق جميع الأكوان، ومسخرها، ومهيمن عليها بقهره وألوهيته وتدبيره وتقديره، ولاشك أن الأمر الثاني بالتقوى يحمل التهديد كما يدل عليه ختام الآية.

قال المحققون: ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشارة إلى صفات الكمال كلها، وللحمل على الامتثال، وتربية المهابة، وإدخال الروعة، ولوقوع التساؤل به لا بغيره من الأسماء الحسنى، وأصل ﴿تَسَاءَلُونَ﴾: تتساءلون، فطُرحت إحدى التاءين تخفيفًا.

وقوله – سبحانه –: ﴿وَالأَرْحَامَ﴾ فعلى قول أكثر المفسرين أن التقدير واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهو قول قتادة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وابن زيد، والفراء، والزجاج، وعلى هذا يكون نصب ﴿الأرحام﴾ للعطف، أي: اتقوا الله واتقوا الأرحام، يعني: حق الأرحام فصلوها ولا تقطعوها.

وجوز بعضهم كون النصب للإغراء، أي: والأرحام فاحفظوها وصلوها، وتفسير الجمهور يدل على وجوب صلة الأرحام، وتحريم قطعها، وليس السؤال بالله والأرض يُقصد منه الحلف للنهي عنه بغير الله، وإنما يقصد به

الاستعطاف للالتماس الحق أو المعونة على الخير أو رفع الأذى والقطيعة، وقد جرت العادة بين العرب أن يستعطف بعضهم بعضًا بالرحم، وقد كان المشركون يستعطفون رسول الله ﷺ بذلك ولم ينكره.

قال الرازي نقلًا عن القاضي: وهذا أحد ما يدل على أنه قد يراد باللفظ الواحد المعاني المختلفة؛ لأن معنى تقوى الله مخالف لمعنى تقوى الأرحام، فتقوى الله إنما يكون بالتزام طاعته واجتناب معاصيه، واتقاء الأرحام بأن توصل ولا تقطع فيما يتصل بالبر والإفضال والإحسان.

ويمكن أن يجاب عنه: بأنه - تعالى - لعله تكلم بهذه اللفظة مرتين، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال، انتهى كلامه.

قلتُ: الأَولى تخريج ذلك على تعظيم حق الرحم، والمبالغة في شأنها، وأن صلتها بمكان عظيم من الله، كما ورد في الحديث الصحيح: «أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا، وكقوله في تعظيم حق الوالدين: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤].

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣] أي: بالقيام بحقهما، وكقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ . . ﴾ [النساء:٣٦] إلى آخر الآية.

وقطيعة الأرحام من أفظع موجبات سرعة العقوبة، كما ورد النص بذلك.

وقال – تعالى –: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣].

قد أخرج الشيخان بسنديهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك».

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع فيكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه» ورواه ابن حبان أيضًا والنسائي والحاكم.

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مُضر-وهم مجتابوا النهار أي: من عُليِّهم وفقرهم قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء:١] ثم قال: «يا أيها الناس اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد» ثم حثهم على

الصدقة، فقال: «تصدق رجل من درهمه من صاع برده من صاع تمره» وذكر تمام الحديث المشهور، وهكذا رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن عن ابن مسعود، وقد دلت الآية على جواز المسألة بالله كما وردت الأحاديث بذلك أيضًا، وليس التساؤل بالأرحام قسمًا بها، فإن السؤال بالله غير القسم بالله، والسؤال بالرحم غير الحلف بها.

وقد حقَّق ذلك وفصله الشيخ ابن تيمية في القاعدة التي حرر فيها مسألة التوسل والوسيلة، فقد أجاد وأفاد وأوضح المراد، وإني أقتصد منه على القليل خشية الإطالة فمما قال: وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْإِقْسَامَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِغَيْرِهِ لَا يَجُوزُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقْسَمَ بِمَخْلُوقٍ أَصْلًا وَأَمَّا التَّوَسُّلُ إلَيْهِ بِشَفَاعَةِ الْمَأْذُونِ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ فَجَائِزٌ، ولأنه كَانَ قَدْ طَلَبَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ كَمَا طَلَبَ الصَّحَابَةُ مِنْهُ الِاسْتِسْقَاءَ.

وَقَوْلُهُ: "**أَتَوَجَّهُ إلَيْك بِنَبِيِّك مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ**" أَيْ: بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ لِي وَلِهَذَا تَمَامُ الْحَدِيثِ "**اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ**".

فَالَّذِي فِي الْحَدِيثِ مُتَّفَقٌ عَلَى جَوَازِهِ وَلَيْسَ هُوَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ فَعَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ بِالنَّصْبِ: إنَّمَا يَسْأَلُونَ بِاَللَّهِ وَحْدَهُ لَا بِالرَّحِمِ وَتَسَاؤُلُهُمْ بِاَللَّهِ يَتَضَمَّنُ إقْسَامَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِاَللَّهِ وَتَعَاهُدَهُمْ بِاَللَّهِ.

وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْخَفْضِ فَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: هُوَ قَوْلُهُمْ: أَسْأَلُك بِاَللَّهِ وَبِالرَّحِمِ، وَهَذَا إخْبَارٌ عَنْ سُؤَالِهِمْ وَقَدْ يُقَالُ: إنَّهُ لَيْسَ بِدَلِيلِ عَلَى جَوَازِهِ، فَإِنْ كَانَ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِهِ فَمَعْنَى قَوْلِهِ: أَسْأَلُك بِالرَّحِمِ لَيْسَ إقْسَامًا بِالرَّحِمِ - فالْقَسَمُ هُنَا لَا يجوز - لَكِنْ بِسَبَبِ الرَّحِمِ أَيْ لِأَنَّ الرَّحِمَ تُوجِبُ لِأَصْحَابِهَا بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ حُقُوقًا؛ كَسُؤَالِ الثَّلَاثَةِ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ، وَكَسُؤَالِنَا بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَفَاعَتِهِ. انتهى المقصد منه.

وقال أيضا: فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: **"أَسْأَلُك بِكَذَا"** نَوْعَانِ: فَإِنَّ الْبَاءَ قَدْ تَكُونُ لِلْقَسَمِ وَقَدْ تَكُونُ لِلسَّبَبِ فَقَدْ تَكُونُ قَسَمًا بِهِ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ تَكُونُ سُؤَالًا بِسَبَبِهِ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَالْقَسَمُ بِالْمَخْلُوقَاتِ لَا يَجُوزُ عَلَى الْمَخْلُوقِ فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ؟ وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ السُّؤَالُ بِالْمُعَظَّمِ كَالسُّؤَالِ بِحَقِّ الْأَنْبِيَاءِ فَهَذَا فِيهِ نِزَاعٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

فَنَقُولُ: قَوْلُ السَّائِلِ لِلَّهِ – تَعَالَى -: **"أَسْأَلُك بِحَقِّ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ أَوْ بِجَاهِ فُلَانٍ أَوْ بِحُرْمَةِ فُلَانٍ"** يَقْتَضِي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ جَاهٌ وَهَذَا صَحِيحٌ.

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ وَجَاهٌ وَحُرْمَةٌ يَقْتَضِي أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ دَرَجَاتِهِمْ وَيُعَظِّمَ أَقْدَارَهُمْ وَيَقْبَلَ شَفَاعَتَهُمْ إذَا شُفِّعُوا مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وَيَقْتَضِي أَيْضًا: أَنَّ مَنْ اتَّبَعَهُمْ وَاقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا سُنَّ لَهُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِيهِ كَانَ سَعِيدًا، وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرَهُمْ الَّذِي بَلَّغُوهُ عَنْ اللَّهِ كَانَ سَعِيدًا، وَلَكِنْ لَيْسَ مُجَرَّدِ قَدْرِهِمْ وَجَاهِهِمْ مِمَّا يَقْتَضِي إجَابَةَ دُعَائِهِ إذَا سَأَلَ اللَّهَ بِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ اللَّهَ بِذَلِكَ بَلْ جَاهُهُمْ يَنْفَعُهُ أَيْضًا إذَا اتَّبَعَهُمْ وَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ عَنْ اللَّهِ أَوْ تَأَسَّى بِهِمْ فِيمَا سَنُّوهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَنْفَعُهُ أَيْضًا إذَا دَعَوْا لَهُ وَشُفِّعُوا فِيهِ.

فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ دُعَاءٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَلَا مِنْهُ سَبَبٌ يَقْتَضِي الْإِجَابَةَ لَمْ يَكُنْ مُتَشَفِّعًا بِجَاهِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ بِجَاهِهِمْ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ يَكُونُ قَدْ سَأَلَ بِأَمْرٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُ لَيْسَ سَبَبًا لِنَفْعِهِ. انتهى المقصد منه.

قلتُ: وما تعلق الجهال والمخدوعين والمشركين بالشفاعة التي يطلبونها من غير الله إلا لقياسهم له على المخلوق، وهو قياس فاسد، لوجود الفارق، بل الفروق.

وقوله – سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ فيه تذكير لعباده بمراقبته لهم، وتهديد لهم على المخالفة، والرقيب هو الحفيظ عليهم، المطلع على جميع أحوالهم بإشرافه الكامل عليهم وإحاطتهم بحركاتهم، وسكناتهم، ويستوجب ذلك عليهم إخلاص الضمائر وصدق النوايا وحسن الأعمال والتزام حدوده سبحانه في كل ورد وصدر، لأن من أيقن بمشاهدة الله له وعلمه بما يظهره ويخفيه ومراقبته لجميع أعماله وجب أن يعامله معاملة المشاهد الذي لا يقدر على المخالفة له، بل يمنع الخوف منه والحياء، ولهذا صوَّر الرسول ﷺ الإحسان

بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقد ربط الله – سبحانه – أوامره وجميع تشريعاته بالعقيدة ليربط عباده بالتقوى في كل شيء، ويكونوا حرَّاسًا على ثغرات أنفسهم من غزو شياطين الجن والإنس بالألوان الجاهلية المختلفة، سواءً ما ترسب منا بواسطة الأهواء والشهوات، أو ما تجدده الشياطين من الشبهات والأباطيل والمغريات على الأطماع والأنانيات المختلفة، فهذه تعاليم دين الله في وحيه المبارك تركز في البشرية حقيقة الإنسانية، وتغرس فيها روح المحبة والشفقة، والحنان، والتكافل والاتحاد على الهدف الروحي، وحصر الالتقاء على صراط الله دون ما سواه من طرق الشياطين.

وألا يتعالى أحد منهم على أحد، ولا يحتقر بعضهم بعضًا، ولا ..... أحد منهم في مال أحد، أو عرضه، ولا يحسده على نعمته ولا يبخل عليه بحاجته، ولا يحقد عليه لثروته، ولا يحمل عليه في صدره أي غيظ أو موجدة، ولا يفكر في أي نقمة ينقم بها عليه، بل ولا يتمنى حصول ما فضله الله عليه من الحالة الدنيوية، لأنه شقيقه مهما اختلف لونه أو بعدت مواطنه، ويجب عليه القيام بحق الرحم في جميع الحالات، هذا ما ترسمه هذه الصورة المباركة في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والثقافية بروح مشبعة بالمودة والعدل، والحنان، وحسن المقاصد، وسلامة الصدور وقوة المؤاخاة الأصيلة الموجبة بصفاء النفوس على عكس التعاليم المركسية المركزة للحقد

والموجبة لانتشار النقمة، وإذكاء نيران الغضب والغيظ وحمل العداوة الضارية وشراسة الطبع، وخبث المقاصد وسوء التفكير، ولؤم المعاملة وفظاعة القساوة، والخواء الروحي وفساد القلوب المنقطع النظير مما حصل به على الإنسانية أبشع أنواع الهلاك والأذى، وأفظع أنواع التعذيب والإجرام من السحل لأبناء الجنس الواحد يجريه بعضهم على بعض كأنهم لم يتبادلوا طيلة أعمارهم شيئًا من المعروف الموجب للرحمة والإحسان.

والذين يسحبون إخوانهم بالحبال وهم أحياء حتى يتقطعوا نسوا أنَّ مصيرهم السحل كمثلهم، وأنهم سيذوقون ما ذاقوه، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل يضطرون الجموع الهائلة من البشر بجرافات الحديد .... إلى حفر عظيمة، يُكدسونه فيها ويدفنونهم وهم أحياء، يتضاورون مما أصابهم، وقد بلغوا الملايين في حالة الإفناء الوحشية التي لا يمكن أن تعاملوا بها البهائم، ولا تقبله شريعة الغاب، كل هذه الأعمال الوحشية القاسية تنفيذا لوصايا مركس الذي يوصي بإفناء ثلاثة أرباع العالم في سبيل تنفيذ المذهب الماركسي وقبوله، وأنه يكفي بقاء ربع العالم المتقدم لهذا المذهب فقط، ومن المؤسف المحزن أن وصيته الملعونة التي نفذها لينين اليهودي لم ينفذها على غير المسلمين من اليهود والنصارى، لأن التنفيذ وراءه تخطيط اليهود الماكر الذي جعل القيادة النصرانية في قبرص تنفذه ضد المسلمين، مما يثبت أن المخطط اليهودي ضدنا بادئ ذي بدء، وأنه لا يصل النصارى في البلاد الشيوعية إلا

بعد التنكيل بنا، وأنه لو حصل عليهم معشار ما حصل علينا لاجتمعت جميع الدول الكافرة على حربهم، وأن اليهود خاصة في أمان كامل، وحماية على حسب وصايا طواغيت الماركسية اليهود التي تأثرت بها جميع دول الأرض، ولسنا بصدد ذلك وإنما المقصود بيان أخلاق القرآن التي يوجبها على بني الإنسان في معاملة بعضهم لبعض مما هو في منتهى الرحمة والمودة، والحنان، وأنها على خلاف التعاليم الماركسية اليهودية التي شقي بها العالم كله لإعراضهم عن وحي الله، فإن من لم يأخذه بقوة بل أعرض عنه لابد أن يجعل الله معيشته ضنكًا كما توعده بذلك، ولو كان مثريا أو متنفذًا وقد سلط الله على اليهود على المثرين فمكروا بهم، وقسموهم إلى كتلتين: رأس مالية طاغية، وشيوعية مهلكة باغية، وكل كتلة لها طابع خاص فيما يتعلق بالظلم والأخلاق، إلا أن الشيوعية أفظع ظلمًا، وجورا.

فإن حكامها قد استرقوا شعوبهم وابتاعوا خيراتهم وجعلوهم أسوأ من العبيد، وتمتعوا بما لم يتمتع به الأكاسرة والقياصرة في سالف القرون، وخدعوا شعوبهم بالمواعيد الكاذبة التي لا تنتهي أبعادها وهم سائرون بأنواع الفتك والتعذيب والإرهاب.

وقد كسب تلاميذهم من شيوعي العرب أخلاقهم اللعينة ففتكوا بشعوبهم وآذوهم بما الله بهم عليم، وقد تفاقمت الشرور على الإنسانية بالثورات والمؤامرات التي هي من صنع اليهودية العالمية التي حولت بها العالم

إلى جحيم مذهبي يكمن فيه الحقد المتوقت الذي يحصل به أنواع الهلاك والعذاب ليهيئوا الجو الملائم لدولتهم الذميمة حتى تفرح بها الشعوب، وتعتبر احتلالها وحكمها رحمة وإنقاذا كما تنص قرارات حكمائها على ذلك، وقد أسلفنا القول في أنه لو هبط على بني الإنسان خلق غريب يعاديهم ويريد افتراسهم والانتقام منهم لما أنزل بهم شرورًا أفظع وأشنع من شرور الشيوعيين الذين يزعمون لأنفسهم ما يزعمونه من أنواع التقدم وألقاب المديح، وهم لا يرون للأمم والشعوب المخالفة لمذهبهم حقًا في الحياة ولا أي حرمة ولا أي قيمة، فمتى يرجع العالم إلى هداية القرآن وتعاليمه المحققة للسعادة والحياة الطيبة المنقطعة النظير.

هذا وإن محتويات هذه السورة المباركة ومدلولاتها العظيمة من التشريعات الرشيدة معجزة خالدة لخاتم النبيين ﷺ في كل شأن من شئون الحياة، فإن نصوص هذه السورة تقضي بمحو جميع عادات الجاهلية، وتصوراتها، والقضاء عليها من الأساس بأسلوب فطري حكيم يقبله كل ذي عقل سليم، وترسم للمسلمين منهجًا صحيحًا كريمًا يعيدون فيه للإنسانية كافة حريتها المفقودة وسعادتها المنفوذة وراحتها المتزعزة، وأمنها المضطرب، ويرفعون عنها جميع أنواع البؤس.